في مزارات الاسكندرية

للدكتور عبد الوهاب عزام

« بقية المنشور في العدد ٣٣٤ »

سرنا إلى جامع البوصيري وهو من أجل المساجد وأحبها إلى نفسي لا يمل زائره الجلوس فيه يقلب الطرف في جوانبه ويرى البردة منقوشة على أربعة جدرانه في إطار واحد، ويرى بين الحين والحين زرقة البحر والسماء فيطلق فكره من المعبد الصغير إلى المعبد الأكبر بين لجة الماء ولوح الجو

ذكرنا هناك المحدث الأديب الشاعر شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري صاحب البردة والهمزية القصيدتين المباركتين اللتين خلدتا صاحبهما وخلدتا في صفحات الدهر وتالتا من الحفظ والإنشاد والكتابة والنقش والتذهيب والتحلية ما لم ينله شعر آخر في الجاهلية والإسلام

وجلسنا في الإيوان المشرف على الصحن جلسة خفيفة أنشدنا فيها الشيخ الخالدي هذه الأبيات :

أما المحبة فهي بذل نفوس ... فتنعمي يا مهجتي بالبوس

بذل المحبّ لمن أحبّ دموعه ... وطوى حشاه على أحر رسيس

شرفاً لشاذلة ومرسية سرتْ ... لهما الرياسة من أجلّ رئيس

ما إن نسبت إليهما شيخيهما ... إلا جلوتهما جلاء عروس

وليست هذه الأبيات غريبة في مسجد البوصيري، وإن لم يذكر فيها، فهو تلميذ أبي العباس المرسي. وأبو العباس تلميذ الشاذلي

وأبو الحسن الشاذلي هو الشريف تقي الدين علي بن عبد الله بن عبد الجبار شيخ الطريقة الشاذلية. كان عالماً واسع العلم وبلغ الدرجات العالية في التصوف وتوفي بصحراء عيذاب متوجهاً إلى مكة في ذي القعدة سنة ٦٥٦ ونسبته إلى شاذلة إحدى قرى تونس

وأردنا أن نزور قبر الشاطبي الذي ينسب إليه حي الشاطبي في رمل الاسكندرية فقيل لنا إن قبره قد اشتملت عليه العمارة الشامخة التي شادتها جمعية العروة الوثقى هناك

وهذا الشاطبي غير صاحب الشاطبية، ولكنه من رجال القراءات كذلك ذكره السيوطي في حسن المحاضرة في عداد من كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية. وقد كتب لي العلامة الشيخ الخالدي ترجمته من كتاب «الزهر المضي في مناقب الشاطبي» وهأنذا أثبتها هنا :

«أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي نزيل اسكندرية ويعرف بابن أبي الربيع أحد أولياء الله تعالى شيخ الصالحين صاحب الكرامات المشهورة، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلي عن الناس، والتمسك بطريقة السلف، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبي عبد الله محمد ابن سعادة الشاطبي وغيره، وقرأ بدمشق على الواسطي وسمع عليه الحديث ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قبره ومنبره سنة ٦١٧، وسمع بدمشق على أبي القاسم بن صصرى وأبي المعالي بن خضر وأبي الوفا ابن عبد الحق وغيرهم. وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبي عبد الله الراسي، وصنف كتباً حسنة منها كتاب المسلك القريب في ترتيب الغريب، وكتاب اللمعة الجامعة في العلوم النافعة، وتفسير القرآن العزيز، وكتاب شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل، وكتاب المباحث السنية في شرح الحصرية، وكتاب الخرقة في إلباس الخرقة، وكتاب المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد وكتاب النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية وكتاب زهر العريش في تحريم الحشيش وكتاب الأربعين المضية في الأحاديث النبوية، ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ووفاته بالأسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢، ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته رحمهما الله»

ويوم الأربعاء التاسع والعشرين من رجب خرجت أنا والأستاذ الزيات لرؤية جامع الشيخ. وكنت واعدت الشيخ ابراهيم القادري شيخ التكية القادرية أن أمرّ به صباح هذا اليوم ووعد أن يكلف خازن مكتبة الجامع أن يكون هناك ليطلعنا على خزانة الكتب.

زرنا التكية وصحبنا الشيخ ابراهيم إلى الجامع، وكنت أسمع بجامع الشيخ وأود أن أراه فلم تتح الفرصة قبل

الجامع مبني فوق سوق بها حوانيت كثيرة. دخلنا من الباب الخلفي فصعدنا درجاً وملنا ذات اليسار إلى مكتب لتعليم القرآن، ثم صعدنا درجاً آخر إلى حجرات يسكنها طلاب العلم في ذلك الجامع. ثم هبطنا من حيث صعدنا فدخلنا إلى جامع واسع فيه مصلى كبير تحيط به ثلاثة أروقة كبيرة، رواقان مستطيلان عن جانبي القبلة ورواق إلى الشمال كبير يفضي إلى باب المسجد الأمامي وقد ألفيت المسجد أوسع وأجل مما حسبت قبلاً

وسرنا في الرواق الذي إلى يسار القبلة إلى حجرة، وتقدم شيخ وقور هو إمام المسجد ففتح الغلق عن باب يؤدي

إلى حجرة تفضى إلى حجرة أخرى فيها الكتب

سمعت من قبل أن هذه الخزانة أغلقت أربعين عاماً ثم فتحت وقد فعلت الأرضة فعلها بالكتب فأتلفت كثيراً منها . ورأيت بقية الأرضة والإهمال من هذه الكتب مكدسة فى رفوفها لا يدرى ما فيها . ولعل فيها من نفائس الكتب ما نفتقده فى دور الكتب فلا نجده، أو ما نحن فى حاجة إليه شديدة لتصحيح ما لدينا من الكتب المخطوطة . ولست أدرى على من تقع التبعة فيما أصاب هذه الأسفار من التلف وما هى فيه من ضياع . إن أسرة الشيخ ابراهيم باشا الذى أسس هذا المسجد أسرة عريقة فى البر لها أياد على العلم والعلماء . وكانت دورهم مقصد رجال العلم من مصر وغيرها . وكان هذا الجامع معهداً فى الاسكندرية قبل إنشاء المعهد الدينى التابع للأزهر . فلماذا ترك الخلف من هذه الأسرة سنن السلف وأهملوا آثار آبائهم ؟ وإن كان لوزارة الأوقاف إشراف على هذا الجامع فعليها تبعة عظيمة، وعليها أن تستولى على المسجد ومكتبته أو تلزم القائمين عليهما أن يحسنوا القيام .

لعل كلمتى هذه لا تذهب سدى بين الأوقاف وأسرة الشيخ ابراهيم باشا .

تركنا الجامع إلى مكتبة الاسكندرية فى دار موصيرى .

وهناك لقينا الأخ الأديب الشيخ بشير الشندى ، فأنسنا به وأفدنا من حديثه عن الكتب ، وعن آثار الاسكندرية . وقد أطلعنا على رحلة ابن رشيد التى ذكرتها فى المقال السابق . وفى المكتبة منها الجزء الثالث وهو المتضمن وصف مصر . وهو منقول عن نسخة فى الأسكوريال . وهذه الرحلة ذات جدوى كبيرة فى تاريخ مصر ولا سيما الاسكندرية ، وهى جديرة بالعناية والنشر

وكان من حديث الأخ بشير أن قال : أسمعتم عن بئر مسعود ؟ قلنا : نعم هو على ساحل سيدى بشر . قال : لكن مسعود الذى أضيفت إليه البئر ؟ قلنا : لا ندرى . قال : عندى حديث عنه لا تجدونه فى الكتب . كان شيخنا الشيخ عبد الفتاح شريف والشيخ جاد الحق يذهبان إلى تلك الجهة للرياضة والدرس وكنت أذهب معهما ؛ وكان الشيخان ومن يصحبهما يجلسون على هذه البئر يتمتعون بمنظر البحر وهوائه . وكان فيمن يحضر هذا المجلس رجل ظريف موظف فى الجمرك يسمى مسعود أفندى طراطيش فبدا لشيخنا أن يسمى البئر « بئر مسعود » فعرفت بهذا الاسم حتى اليوم قلت: هى فائدة لم يفكر فيها اللاهون حول البئر اليوم

رجعت إلى دارى وأنا أتمنى أن تمكن الفرص من بعد لرؤية ما لم نر من مشاهد المدينة العظيمة

عبد الوهاب عزام

شركة مصر للملاحة البحرية

ببواخرها الفاخرة وفنادقها الأنيقة

تسير بكم على بركة الله إلى بيت الله الحرام

وبنك مصر يؤدى لكم جميع الخدمات المصرفية ويتولى عنكم دفع الرسوم

فخذوا أهبتكم للحج هذا العام

جميع الاستعلامات من :

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها